جمالية الغموض في ديوان "مقام البوح" لعبد الله العشي

طالبة دكتوراه: فاطمة الزهراء حمديس
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

ملـــخص:

تسعى الدراسة إلى ذرف تجربة الشاعر "عبد الله العشي" من خلال الوقوف عند مشارف ديوانه "مقام البوح"، الذي يلامس وهج الحداثة بالاغتراف مما تحبل به التجربة الصوفية، ولعل جماليات الغموض كمحمول صوفي خطوة حثيثة في مسار التجريب الشعري المتجاوز للمألوف بشطح صوفي يقفز على حبل الستر والكشف مولّدا شعرية موغلة في الغموض والجمال، معتمدة على لغة الإشارة للوصول إلى حبر التجلي والبوح الذي يكتب به الشاعر تجربته.

الكلمات المفتاحية:
الغموض، الرمز، الشعر الصوفي، التجربة، التجريب.

Abstract:

This research sought to delve into the mystic experience of the great poet Abdullah El Ache by shedding light on his poetic work"" Makam El Bowh". This modernwork, which is described as a poetic experimentation, is resulted from his mystic experience, more, from what is known as mystic enigma. In fact, his work is the interpretation of a tremendous poetic esthetics created by various elements such as ambiguity and clarity, can be known only by mystic poets. These two things, in addition to the use of symbolism, helped the poet to form and write his incomparable experience, in other words, his state of mind.

Key words: ambiguity, symbolism, mystic poetry, mystic experience, experimentation.

تـوطـئـة:

يعدّ الغموض[1] منبعا للإثارة الروحية واللمسة الوجدانية باعتباره سبكاً جمالياً ملازماً للشعر العربي والغربي، خاصة منه الشعر الحديث الذّي نزع إلى طلب المغايرة والاختلاف بهمس نشوة "الغموض كأخص خصائص الحداثة الشعرية"[2] أين يتسامى الشاعر بالروح إلى عالم خيالي ميتافيزيقي غير هذا العالم الأرضي.

وليس النص العرفاني بمنأى عن الشعرية الحداثية ، والاهتمام بتمتع الشعر الصوفي عن الإبانة والوضوح نابع من كون"الغموض هو حالة محايثة للتجربة الصوفية ذاتها"[3] إذ إنّ وعي الشاعر المعاصر بخصوصية تجربته دفعه إلى الانعتاق من دنس الواقع بمعانقة الخيال، والانغماس في فيوض التجربة العرفانية، عازفا على أوتار التصوف الرثة ترانيم الحداثة بمختلف نوطات التجريب[4]، كذا شق حجب الستر المسيّج برموز عدّة يكتنفها الغموض وبنكه متنوعة تثير أذواقنا التي اعتادت طعم الوضوح بصورة شكلّت صدمة إزاء القصيدة المعاصرة، وحالت دون الاستمتاع بجماليات هذا النسق.

فكيف وجد هذا الشعر الصوفي الغامض صدى وتجاوب لدى القارئ المعاصر ؟

لعلّ "المتلقي الفطن والواعي يرى في هذا العنصر القار جمالا يثيره ويستثيره، بل يزرع فيه تلك الرغبة الإبداعية، التي تدفعه إلى التوغل في سراديب النص الإبداعي، فيستحضر جل أدواته النقدية ليخوض مغامرة الكتابة الجديدة، ويعيش حرارة البحث والكشف، كالتي عاشها الشاعر لحظة التوهج والكتابة الأولى...فالغموض ظاهرة جمالية[5] في الشعر الحداثي طالما أجاد الشاعر استثمارها في تجربته الشعرية"[6].

واستثارة قضية الإجادة كفيل ببث شرخ الإبهام الذّي يحجُب الرؤيا ويخلّ بالفهم وهو ما دفع النقاد إلى إسالة حبر برزخي بين الغموض[7] Ambiguity و الإبهام Obscurity "فنحن نستخدم في الأغلب لفظ الغموض و نادرا ما نستخدم لفظ الإبهام، مع أنّ الشيء المبهم المستغلق ليس هو دائما بالضرورة الشيء الغامض، و قد سبق أن حلل **أمبسون**[8] Empsonwilliam صفة الإبهام فهو عنده صفة نحوية بشكل أساس، أي ترتبط بالنحو و تركيب الجملة، في حين أن الغموض صفة خيالية تنشأ قبل مرحلة التعبير المنطقية، أي قبل مرحلة الصياغة اللغوية و النحوية" [9]كرونق إبداعي و مزيّة لسانية بحتة تضفي على الشعر سحرا جماليا قارّا في ذاته و لذاته منذ عصور غربية غابرة ذلك أن " المفهوم اللاتيني لمعنى الغموض في الأدب، مرتبط بالدّين

و التصوف و الميتافيزيقا، و المفهوم الإغريقي قد نبع من الطقوس الدينية السرّية، و لكنه اكتسب أبعادا جديدة مرتبطة بالإثارة الفنية و الحبكة الدرامية "[10].

تضرب ظاهرة الغموض بجذورها في أعماق الأدب العربي القديم فقد يُؤتى بما استغلق على الفهم لتعظيم الشيء و تفخيمه عند المتلقي أو لأنّ فيه مزيّة ليس للوضوح فيها ضرب كما نحى "عبد القاهر الجرجاني" في قوله: "و من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له و الاشتياق إليه و معاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى، و بالمزيّة أولى، فكان موقعه من النفس أجل و ألطف و كانت به أضن و أشغف"[11] و قد ذهب "أبو إسحاق الصّابي" إلى رأي مماثل حين قال أن:" الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة و مماطلة، و الحسن من النثر ما سبق معناه لفظه "[12] في حديثه عن ركون الشعر للمعنى المعمّى الملغز في مقابل المعاني النثرية الجاثمة تحت وطأة السذاجة اللغوية الناجزة، مما يعني أنّ العرب قديما أدركوا أهمية الغموض في الشعر الذّي يمثّل لبّ الإبداع عند كل من: المتنبي، البحتري، المعرّي، أبو تمام، وأبو نواس..."فلم تكن تهمة الغموض التي ألصقت بالشعر العباسي الجديد غير محاولة لطمس ملامح التغيّر و دلالات التحوّل في المجتمع تسعى سلطته إلى المحافظة على ثباتها عبر كل مؤسساتها و تجلّياتها الثقافية و الجمالية"[13].

و هذا لا يعني أنّ الأدب العربي القديم قد احتفى بهذه الظاهرة إجمالا فمن النقاد من وقف من الغموض موقفا رافضا و ذهب في إثر الوضوح إلى القول أن" من شروط الكلام أن يكون المعنى واضحا جليّا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه و تأمّل لفهمه، و سواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوما أو منثورا"[14]كما ذهب إلى ذلك "ابن سينان" ، و اتفق ما قال به "حازم القرطاجنّي" مع هذا في إيضاحه مقاصد الإغماض إذ يرى أنّ" غموض المعاني منها ما يعود إلى المعاني نفسها و منها ما يرجع إلى الألفاظ و العبارات المدلول بها على المعنى و منها ما يتعلّق بالمعاني و الألفاظ معًا"[15] فغموض المعنى لا يحيد عن هذه الزوايا حسب نظرة" حازم " لهذه المسألة، و قد عمل على توضيح الأمر بالوقوف عند أساليب إماطة لثام الغموض في المعنى باعتباره عائقا أمام تأدية النصّ الشعري لوظيفته التخييلية.

يَبِينُ الشعر القديم ممّا ذُكر آنفا بميله "لطابع الوضوح و السهولة، لأنّه يستخدم لغة محددة الأبعاد منطقية لا يميّزها عن لغة النثر إلاّ ما فيها من ارتباط بالأوزان العروضية"[16] في حين يلتحم الشعر الحديث بلحاف الغموض، بالرغم من غلبة عرامة النقد التقليدي الذّي ينزع تُجاه الوضوح و لغة المنطق، فَهِمَ شعبذة من النقاد العرب الغموض على أنّه مقوّم جوهري و جمالي للشعر لا يضير البيان بل يحققه، إلاّ أنّ هذا اقتصر على فئة لا تتعدى أنامل الأصابع تحاكي موقف جلّ النقاد و الأدباء من الشعر الحديث و منهم "بول فاليري" الذّي أصرّ على أنّ: "الغموض الشديد هو الأصل و أنّ الكشف و الإيضاح قاتل للعمل الأدبي"[17].

و ذهب "أدونيس" المذهب نفسه حين فيْصَل بين الإبهام و الغموض المسند إلى الشعر في قوله: "الشعر نقيض الوضوح الذّي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق، الشعر كذلك نقيض الإبهام الذّي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا"[18] و لم يكن أقلّ طلبا للستر بعد ما عدّ الإغماض "قضية إبداعية و لغوية و معرفية، بمعنى أنّه أولى أهمية خاصة للبعد المعرفي و الجمالي للنصّ الشعري فهذه الأبعاد هي التي ولّدت الغموض و جعلته صفة إيجابية"[19] استقطبت الناقد "محمد الهادي الطرابلسي" إلى خوض غمار دراسته كإحدى مظاهر الحداثة في الأدب إذ يرى إنّ الغموض "ملازم للشعر و يؤلّف ظاهرة في شعرنا الحديث تشبه ظاهرة الوضوح في شعرنا القديم و ينتهي إلى أنّه ضروب عدّة، أكثرها ضرورة للشعر أبعدها عن الإبهام و أقربها إلى البيان "[20].

و ليس ببعيد عن هذا الحديث درج "محمّد بنيس" على شظايا نوعيّة في نقلة شعرية تكبس زرّ "بلاغة الغموض" ضمن مستويات متعددة : دلالية، نحوية، إيقاعية، و معرفية... تقرّ "بانفجار لغة النص و خروجها عن القوانين المقيّدة للغة اليومية العادية "[21]، كما انكفأت " فريال جبوري غزول" على ثبج الحداثة الشعرية قرينة الغرب حين سلّمت "بشرعية الغموض كخاصية شعرية أصيلة و خاصية حداثية كبرى "[22] تَمْثُلُ أمامنا كعنصر جمالي يُفضي تكديسه إلى حالة إبهام منافية للشعرية الحقة التي تُمارس في خضم الحداثة شبه تشويش على القارئ بتحطيم الألفة و بعث الاضطراب و القلق و حالة العبث و اللامعقول و اللامنطق و اللامعنى على جسد القصيدة المعمّدة في ماء التجربة الصوفية فإلام يعود الغموض الذّي يلفّ الشعر الصوفي؟

دواعي الغموض في الشعر الصوفي المعاصر:

يبدو من الضروري تحليل و تحديد كنه الغموض ذاته، و التنقيب عن الكبسولة الجمالية التي تجعل الغموض في الشعر الصوفي إشعاعا ماسيّا ملازما لطبيعة الإبداع في مدّه و جزره و التي تعود إلى "رفض التجربة الصوفية الدائم للسائد و المألوف وسعي التجربة الصوفية للكشف عن باطن الوجود و جوهر الكون، وأن عناصر الوجود عند الصوفي إشارات و رموز، و الرمز بطبيعته غامض لأنه يتعدّى إطار العقل و الحدس "[23]، و وفقا للهوس الحداثي رفث الشعر المعاصر للغموض نظرا "لأسباب عديدة يأتي في مقدمتها غموض العملية الإبداعية، و طريقة استخدام اللغة بوصفها سفينة الشاعر في مسيرة كشفه الأبدية، تناسل المعاني و ذلك عن طريق انبجاس النص و انفتاحه على المجهول و الثقافة والمعرفة، بوصفها رافدين كبيرين في تشظي ظاهرة الغموض على جسد و روح نص الحداثة.و تلعب الصورة الشعرية إلى جانب هذه العوامل دورا رئيسا في استفحال هذه الظاهرة كي تتراءى له السبل لاختراق المجاهيل"[24] فالدفقة الشعورية تزجُّ بالشاعر في جوّ عائم في الضبابية و التوتر و الهيجان أين

يفقد مقاليد التبيّين و التميّيز، لأنّه بصدد الخلق و ما يُرادُ الكشف عنه غامض و غريب، حتى "ليصبو إلى أنْ يكون وحيا و لهذا كان له الحق في أن يكون غامضا مترددا، لا منطقيا"[25].

ذلك كله كان دافعا لشاعرنا " عبد الله العشي "[26] إلى القول أنّ: "غموض مطلع القصيدة متأت من طبيعته... و كيف يمكن للشاعر أن يقبض على هذا الذّي يأتي و لا يأتي"[27] إنه المولود القصيدة الفريد البكر، و الغامض لغموض ميلاده.

لقد أصبحت تجربة الشاعر المعاصر على قدر من التعقيد و العمق بحيث لا يمكن الإفصاح عن كلّ جوانبها و أبعادها و إنّما تظل في زواياها خبايا تأبى الظهور مُشكّلة ألوانا من الغموض.

ألوان الغموض في الشعر المعاصر:

يميّز "حسين مروة" بين لونين من الغموض "أحدهما مقبول و مشروع، و هو بمثابة شرط من شروط الأدب و الفن، و ذلك لأنّ الصورة الفنية غامضة بطبيعتها و هي لا تقدّم مضمونا بطريقة مباشرة و واضحة بل عن طريق الإيحاء، أما النوع الآخر من الغموض فهو ذاك الذي يفتعله الشاعر افتعالا عن جهل أو عن تصنّع "[28] ممّا سبق يمكن التفريق بين نوعين من الغموض: غموض شفيف موحٍ؛ ينمُّ عن عمق التجربة و سرمدية الخلق الذّي لا يمكن اصطياده في شباك الألفاظ لامتزاجه بطبيعة الشعر في بوتقة التجريب.

وغموض كثيف مردّه قصور اقتناص قناديل الحداثة الهائمة في دهاليز التجربة "فأحيانا يكون الغموض مصدرا للإثارة الروحية و النشوة الوجدانية في المضامين الميتافيزيقية و الصوفية، و أحيانا أخرى يصبح الغموض منبعا لسوء الفهم و المفارقات الكوميدية و المواقف الساخرة، و أحيانا ثالثة يتحوّل الغموض إلى مجال للرياضة الذهنية التي تجبر القارئ أو المشاهد على مشاركة الأديب في البحث عن الحقيقة وسط المتاهات المظلمة و الطرق المسدودة "[29] و هذا يعني إمكانية الفصل بين الغموض الطبيعي الفني و غموض الإبهام و غموض التعمية و الإلغاز على التوالي.

و لعلّ "وليام امبسون" في تمييزه بين ضروب الغموض الجيّدة و الرديئة قد أشار إلى أن الغموض يكون "محترما مادام يسند تعقيد الفكر أو لطافته أو اكتنازه، ثمّ هو لا يستحقّ الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر و يهم الأمر دون داع"[30] و إيراد هذه الضروب يحيلنا على درجات من الغموض "فقد يكون الإغماض قريبا يمكّن الغير من التعرف على المقصود في سهولة و يسر، و قد يكون الإغماض بعيدا فيُعَنّت في إدراك المقصود، و قد يكون أبعد و أبعد فيَحْوجّ إلى التفسير و التأويل و ربما بلغ الإغماض مرحلة الإلغاز فيصد العقل صدّا عنيفا، و يحول بينه و بين الفهم المقنع و لو على شبه الترجيح"[31].

بعد هذا الطرح يمكن الحديث عن تجربة الشاعر "عبد الله العشي" الذّي آثر رشف القطرة التي أفاضت كأس الحداثة فعندما تلبس الذات و اللغة و الرمز و التجربة رداء الغموض والشطح الصوفي، تتبنى القصيدة أسلوبا لا يعوزه العنصر الجمالي الذّي يترك المتلقي يحلّق في أسرار التأويل و يتجرّع تبعاته بتعدد الرؤى.

أنواع الغموض في شعر عبد الله العشي:

إنّ إطلالة شغوفة على قصائد الشاعر المبثوثة في الديوان تجعل القارئ من الوهلة الأولى يحكم بانتمائها إلى الغموض الصوفي الفنّي، لكن بعد قراءة معمّقة نستطيع استجلاء كشوف من الغموض أنبأ بوحيها قول صاحب الديوان: "إن غموض مطلع القصيدة متأتٍ من طبيعته، فهو أوّلا بداية العلاقة بين الشاعر و اللغة، و هو ثانيا قمّة التجربة الوجدانية و هو ثالثا انفجار ضدّ إرادة الشاعر، يندلع من أعماقه حاملا ركاما من المشاعر و الهواجس و الأفكار و الرؤى و الخيالات تحاول كلّها أن تتجسد في اللغة باللغة، و هو إلى جانب ذلك وليد لحظة لما بين، ما بين الوعي
و اللاوعي، ما بين الصحوة و الحلم، ما بين يقظة الروح و حرارة الوجدان، هذه كلها تجعل مطلع القصيدة مجللا بالغموض، عصيا على الفهم"[32] لكون الشاعر المعاصر ليس إلاّ ذاتا تبحث في أعماقها عن لحن مفقود في سراديب الغموض:

- غموض ذاتي حيوي يجسد طبيعة الحياة في غضارتها و نضارتها، وذلك في شفافية تجتذب وتستميل.
- وض ذاتي متعال عن الوجود تعاليا فلسفيا صوفيا يتسامى بالروح والعقل فوق الأصداء المادية.
- وض ذاتي فقد الوعي بذاته وبالحياة، فهو في شطح رمزي متوالد ومتداخل ومتناقض بين الرموز والدلالات"[33].

هو إذن الإبهام اللصيق بطبيعة الذات والشعر والتجربة في نفي للوضوح والبوح كخاصية تجرد الأشياء من مثاليتها وجمالها ، فالمسألة هي عدول عن الإبانة بخلق جو ضبابي قار في ذات شاعرنا المنطوية على كل مبهم مجهول، ليصور خلجات النفس غير المدركة بصورة كثيفة المحتوى لعلّ صداها يرتّسم بريشة التصوف.

1- الغموض الذاتي النفسي:

يلتمس القارئ في النصوص الشعرية الآتية: تجاوب، افتتان ، حرائق الفتون، لا تصمتي بهجة، نشيد الوله، الغياب، التآويهمنولوجا داخليا واضحا يبدأ من تجاوب حدس غامض يرتقبه الشاعر هو "اسم القصيدة" الّذي تتبدى رؤاه الحلمية و تختفي في اتحاد حلولي شفّرت مغاليقه بلغة الصمت الغامضة:

كانت على رمل الشواطئ ترقب اسما غامضا...
يأتي من المدن البعيدة...
كي تراه و كي يراها."(34)

إلى أن يقول:

أمحو المسافة بيننا،
حتى تحل بدايتي
في منتهاها
.....
.....
.....(35)

ذلك أنّ إصغاء المبدع لأناه الأخرى "صوت القصيدة" الّذي جعله الشاعر المعشوق ذاته نيابة عن الذات الإلهية، هو محاولة لفهم النفس البشرية وسط تداخل الذوات و التي تعتبر ضرب من المستحيل لما يكتنفها من غموض ينعكس على النص الشعري في صراخ الشاعر المنقطع حد السفر إلى عالم آخر.

صرخت،،
صرخت،
صرخت
وانقطع الكلام...
.....
.....
وسقطت..
مغشيا عليّ...(36)

يتواصل الجو الشعري الضبابي مع قصيدة "افتتان" ليبدي لنا وجع الكتابة و أرق العملية الإبداعية وتشظي حقل العبارة:

حين يومض في الروح ذلك البريق
يترجل قلبي عن صهوة العمر...
كي يستريح بظلك...
من صهد السنوات.
و يفتح باب العروج إلى قبة...
في الفضاء السحيق.(37)

القصيدة تجعل القارئ يتيه في غياهب غموض التصوير الفني، كأبهى صور التجلي الإلهي في الموجودات ببريق نصي يرسم القلب فارسا شاعريا يترجل عن صهوة العمر أو الجواد الذّي يمثّل الوعي، ليستريح من لفح الشمس أو صهد السنوات و أوجاع الواقع بظل المرأة الشجرة أو القصيدة ،كرموز دال على صورة من صور الذات الإلهية التي وظفها "ابن عربي" لتفسير "وجود واحد يتكاثر في الصوّر الظلال" (38):

تخرج من صورة صورة
و تعود إلى صورة صورة
صور تتوالد...
أو صور تتلاشى...(39)

فالصورة فضاء يجمع بين الغموض و الوضوح و أصداء المفارقة لا للبوح بل للغياب في عوالم اللاوعي بعروج سماوي في الفضاء السحيق و الارتشاف من وحي الإبداع.

حين يومض في الروح ذلك البريق...
تعود المسافة بيني و بيني
و تعقد بيني و بيني السلام(40)

هنا يبرز غموض رحلة الشاعر فهي رحلة إلى داخل الذات و محطة هذه الرحلة الستر:

واسْـــــ...
تَتَر..
.....(41)

فهو احتماء بدفء القصيدة كبديل عن دفء الطرف الآخر، المرموز إليه بالمرأة.

تتواصل الرحلة الغامضة من "الافتتان" إلى "حرائق الفتون" مسكونة بشغف السمو إلى نور نار الفتون أين تتقصى الذات أعماقها الدفينة حيث الفعل الشعري بداخل الشاعر كالنار الحارقة "و النار

ظاهرة يعتريها الغموض في كثير من الأحيان عندما يتخذها الشاعر دليلا على مكاشفة الذات و مباغتة الأنا"[42].

لتتجلى بعدها حركة التماثل مع الذات كدلالة على التوتر النفسي، ذلك لأنّ العقد ذات الصلة بالنار عقد تثير الأعصاب

و تبعث على الشعر في الوقت نفسه:

مدّي قوامك حول ساريتي...
ليرتفع الشراع لرحلتي الكبرى...
وتنفتح البحور.
و تمر أحصنتي إلى جزر الخرافة...
و الزَّبرجد و الزُّمرُّد و البخور.
مدي نشيدك حول صمتي...
كي تبوح الأبجدية بالحرائق و المواجد...[43]

إلى أن يقول:

أدنو من غموض الغيب...
أبصر ما تخفّى عن حدود العين...
أدخل في اليقين[44]

ثم يقول في آخر القصيدة:

أحبيبتي
هل كان مغشيا عليّ...
فصحت على إيقاعك القدسي ...
ذاتي[45]

يبدو لنا نتاج إتحاد الذوات و ما تمخض عنه بمثابة مشهد لصراع مباشر بين الإنسان و معتقداته هذا الصراع الذّي غلّف بالغموض، لتشع حرائق الفتون بجمالية تعتريها سمة الانتشار الدلالي حول وهج الذات ونار الأنا، و أمام هذه البوابة يتشظى حشد من الأنات الهاربة و يحس الشاعر بحرقة وفتنة، مرتبطة بعملية ولادة الشعر الصعبة، لذلك حاول الشاعر أن يقتحم ذاته

و يكشف عن غموضها بكسر حاجز الصمت.

ففي قصيدته "لاتصمتي" يحس القارئ بشيء من الإلغاز الذي يفضي إلى التعمية إلاّ إذا ربطناه بالعناوين السابقة، فإنه يتواصل مع حلقات هذه الحكاية الشعرية ليقول لنا أنه أمر للروح

و نداء من الأعماق و دحر للصمت.

قولي...
لا تصمتي أبدا،
فكل دقيقة عندي بعام.
لا تصمتي...
كل الثمار على حقولك أحرف،
و يداي أعرف بالكلام.(46)

العبارة الأخيرة يلفها الغموض فالكلام يكون باللسان حتى يكون ما نقول معقولا، أمّا إذا كان مصدره اليدين فهذا أمر غير معقول، و غامض يدعو إلى تراسل الحواس في جمالية شعرية

و باعتراف صريح مفاده أن القصيدة هي بطاقة هوية الشاعر و جواز سفرٍ لهجرة كبرى تتأبى التّرحال.

أنت ابتداء الهجرة الكبرى...
إلى ماء الغمام.
نامي إلى جنبي...
سأحرق هذه الأشياء
في جسدي...
لأختصر المسافة بين روحينا...
و يشملنا السلام.(47)

أمّا إذا انتقلنا إلى قصيدة "بهجة" ، فإننا و من العنوان نحس بفرح يعتري ذات الشاعر لعل سببه تحقيق هدف منشود.

نهر من البهجة
ينثال من روحي
يا ليت لي حجة(48)

إلى أن يقول:

يا ليت لي بوحك
طيرا على شفتي
يمتاح من صدرك
يسقي ظما لغتي
يا ليت لي...

يا ليت...
يا ليت لي...
يا ليت...
..... (49)

فالبهجة عند شاعرنا من روحه لكنه لا يمتلكها و هذا غموض ما بعده غموض فهو يملك ما لا يملك، حاله كحال الصوفي في لحظة ما بين الكشف و الستر، إنّه يوّحد بين ذاته و اللغة و ينتظر من جمالية البهجة أن تسقي" الضمأ معادلا سيميائيا يعبّر عن محمولات دلالية غامضة مشحونة بفيض من الرؤى... علّه يبحث عن من ينتشل اللغة من ركودها و ينتشل المثقف من صمته أو ربما يشير إلى رعب الفشل"[50]، وكلها محمولات مرتبطة بالكبت الداخلي في الذات الإنسانية الغامضة.

ووقوفنا عند قصائد "نشيد الوله" "الغياب" "شتات" يجعلها و من العناوين عبارة عن صرخات الذات في جو غامض، دامس يتيه في تيه التآويه إذ يقول في "نشيد الوله":

آه...
من دل قلبي إلى البحر... (51)

و يقول في "غياب":

آه ... يا مر الغياب (52)

أما في "شتات" فيقول:

آه... كم يحرق صدري
وهج الغيبة... (53)

فالتآويه حالة شعورية تحسّرية ينشد من خلالها الشاعر وَلَهَ الكتابة الغائب للعودة بعد أن طال شتات الروح و لا يخفى ما " لثنائية الحضور و الغياب في رحاب التوجه الصوفي من علاقات خفية و معان إيحائية موغلة في الخفاء و الغموض... تعكس رؤيته الشعرية بطريقة خاصة تسهم في إثراء تجربته الشعرية ، و تحقق جمالية قصدية"[54] نبصرها تحت عتبة التآويه

و المونولوج الداخلي المنبعث من ثورة في ذات الشاعر؛ إنّه يبحث عن ذاته في ذاته، و لغموض الذات الإنسانية انعكس الغموض على قصائد شاعرنا "عبد الله االعشي".

2- الغموض الذاتي الأسطوري:

يحفل ديوان "مقام البوح" بمجموعة من الأساطير الأجنبية التي أذاعت نوعا من الغموض في قصائده، كما في قصيدة "قمر تساقط في يدي" التي يقول فيها:

مرّي على جفنيّ...

كي أحلم
كي أفتح الشّبّاك نحو حضارة أخرى
و أكتشف المسالك و الممالك و الأمم(55)

إلى أن يقول:

مرّي...
لتكمل سحرها هذه العبارة في فمي...
عرسا...
وتمل في بلاغتها القصيدة
وتفيض من مجد البذار الخصب
رعشتها الجديدة.(56)

إرادة الشاعر هنا تختلف عن إرادة الصوفي لأنّه في هذا المقام يروم القصيدة ومن خلالها سحر العبارة، ولعلها هي القمر المنشود الّذي جعلنا نعتقد أنّه سقط بين يديه كمطر غيمة من الأساطير المشتبكة الدلالة؛ من "حتحور Hathor" ربة القمر في الأساطير المصرية القديمة- التي تجمع بين الإخصاب و منح الروح لمن فارق الحياة- كحال القصيدة روح الشاعر، إلى "ديانا Diana" إلهة القمر عند الرومان، و أصلها روح شجرة تشع دلالتها في قول الشاعر:

هذا عناق العاشقين:
شجر يحاوره شجر
و طفولة تمضي...
لتتسع الكواكب حول ذاكرتي...
و يمحى العمر(57)

أوهي "كويولاكسس هكي" الطفلة الإلهة التي بُعثت قمرا لتمحو خطيئة إعدامها، أم هي "سلنهSélénée" ربة القمر و مانحة الراعي "أنديميون" حبيبها الخلود بنوم دائم لا نهاية له (مرّي على جفنيّ.../ كي أحلم)، أو هي "لونا Luna" حاملة المشعل (و اشتعلت أغاني الروح..) أو هي "سينثياCynthis" أو "فبه Phébé" أو كيلاّ Quilla أو "نيكالNikkal" أو "هينا"...(58) فغموض استدعاء هذه الأسطورة – القمر- أدى إلى تعدد الدلالات وفتح الباب أمام مختلف التأويلات المعقودة و تضاعيف لغة الاستفهام و التعجب التي تدفعنا بدورها إلى عتبة شعرية الغموض.

أمّا قصيدة "العودة من وراء الماء" فتبعث فينا من الوهلة الأولى مغامرة السندباد البحري الشبيهة و رحلة الصوفية:

أنا جئت من مدن الخرافة...
مثقلا بحطام أصنامي
و أوثان الغواية...
فافتحي للعشاق المعبد(59)

تمثّل العودة من وراء الماء العودة من وراء البحر، و لدال البحر تأويلات عديدة بثّت إشعاعاتها الرمزية في مساحة النص أو الديوان برمته، هذا الأخير هو رمز للأسرار و الأعماق الغامضة، فضلا عن كونه سفر ذهني و اغتراب و عزلة وتصوف
و امتلاك للذة المعرفة في الغامض و اللامعقول.

3- الغموض الذاتي الفني:

إنّ تماهي ذات الشاعر مع ذات ثانية هي القصيدة باعتبارها مبعثا فنيا لا يشكل حالة انفصامية بقدر ما يتماس وحالة الحلول الصوفية، التي تنم عن غموض في الذاتين معاً؛ أين تزاحمت على الشاعر "أجراس الكلام" فبات لا يسمع إلا صدى "القصيدة"، وهو يريد التوحد بها للهروب من صمت العالم.

فحياة الشاعر تكون بالشعر لذلك نجده يناجي رمز المرأة المتلبّس في مجسمات مختلفة: الكلمة الشعر، و القصيدة باعتبار"التجربة الصوفية المعاصرة هي محاولة لتحقيق الكمال الفني"(60):

حين أكون يا أميرتي...
في قمة العشق...
أضيع العبارة...
والنحو والعروض والمجاز والفصاحة
كأنّما تبتسّت على شفاهي...
حدائق الرموز و الإشاره.(61)

وقفة على تخوم عنوان "القصيدة" تدفع القارئ إلى اتخاذ في حضرة الإبداع مجلسا، ينتشل موضوع القصيدة نفسه من الغموض، ومن زخم الكلمات والعواطف التي زُجّ بها في إكسير الغيبة والصحو والمعلنة عن ميلاد أحرف بوح حارقة احتمى من لفحها الشاعر "باحتفال الأبجدية":

وترفّ هاء كالفراشة
كي تحطّ على الندى...
وتبوح بالأسرار...
بوح الباء تكشف سرّها للنّون
ألف ونون

عين ونون

نون ونون

هذا احتفال الأبجدية...

بالغواية والفتون[62]

إنّ أنسنة الأبجدية تلهمنا تأكيدا من أن اللغة كائن حي يجعلنا الفنان والأديب والشاعر نحس بحياته المفرغة من التجربة الصوفية، وفق معادلة حديثة تستجيب لتصورات الشاعر المعاصر"فالمرحلة المعاصرة ليس لها مصطلحات خاصة بها باستثناء ما أدخله الشعراء في خطاباتهم الشعرية من رموز وإشارات تتقاسمها تجربتان، تجربة الكتابة الحداثية وهي تجربة تنحو نحوا تجريديا رؤيويا، وتجربة الكتابة الصوفية، وهي تجربة فنية مستمدة من التجربة السابقة"[63] تمتطّي دوالها الشاردة صهوة الرمز والإبهام ،في ثورة على الوضوح اتجاه متاهات الغموض واستسرارية الأسلوب القرآني الجمالية و كإحالة على صوفية ابن عربي و الحلاج.

تتجلى قصيدة "أيها الشعر" مولودا جديدا مجللا بغموض التناص الأدبي في حضرة الشعر المعاصرة و"مذكرات الصوفي بشر الحافي" لصلاح عبد الصبور في قول الشاعر:

هي ذي في حضرة الوادي تجلّت

فاخلع النعل..

فولاتك تدنو منك.[64]

تبوح الأبجدية بسحر الكتابة المنتظمة في صورة المرأة القصيدة كمعادل موضوعي يحمل مكنونات شعرية تلجأ إلى حضن الغموض الفني البحت.

4- غموض ذاتي صوفي:

للصوفية منحى خاص في طرق أبواب الكلام كأوّل ما يكون البوح المفعم بنبرة المُكاشفة

يقول الشاعر:

أوقفتني في البوح يا مولاتي،

قبضتني، بسطتني،

طويتني، نشرتني،

أخفيتني، أظهرتني...

وبحت عن غوامض العبارة[65]

إنها الحركة نحو الأعماق التي تفضي بجسد القصيدة على ساحل السحر والستر والإبهام، عند غلوّها في التجريد الفلسفي الغريب والمنفصل عن حركة الواقع بغوامض العبارة ولغة الإشارة في حضرة

البوح الكبرى وأبهى المقامات و أولها "مقام البوح"؛ العنوان الرئيسي للديوان الذّي أفرغ فيه الشاعر من ذاته أنثى يخاطبها ليُضلل القارئ و يُوهمه غير المعنى المستبطن.

وكأنّ الشاعر يحيلنا في قصيدة "أول البوح" الموصولة بـ"السّر" الذّي هو عكس الإفصاح على مستودع الغموض في صياغته لهذا العنوان ويوهمنا أنّه صوفي لا يكشف و لا يبوح لحظة اقترابه من البوح.

ما الذي أيقظني يا ربّ حتى...
صرتُ:
روحي روحها...
ثم صارت:
روحها روحي، حتّى
كشف المخبوء سرّه؟(66)

فالشاعر ينشد أعلى مراتب المقام ليبلغ درجة الحلول التي كان يرومها منذ أول البوح، وهو يرمي إلى ما قاله الحلاج "روحي روحه وروحه روحي نحن روحان في جبة واحدة" ، و البوح موت في المنطق الصوفي لذلك فهو لن يسميه في قصيدة "مديح الاسم" التي تشع بغموض كثيف من أول وهلة يقول:

ربّا استعصت على البوح استعاره
إنّني أعرفه...
ربّا تمنعني عنه العبارة
ربّا تعجز ألفاظي
و لكن...
في دمي من لحنه ألف قثاره
ربّا تدركني الرؤيا
فترتدّ إلى حلقي العباره(67)

دعوة الاتحاد و الحلول تشي بغموض سرمدي أضفى على الديوان مسحة جمالية و سمة حداثية تَحُول دون كشف السّر إلاّ للحبيب الأمين.

سأسمّيه...
ولكن
سوف لن يسمعه...

أحد منّي سواك.

فاسمعيه:

".....

.....

....." [68]

المصادقة على الديوان بختم نقاط الحذف يترجم غموضا عند القارئ لا يَبِينُ إلاّ للصوفي العارف "فالنص الشعري استنادا إلى هذا إنما يُعبّر عن شهوة البوح باللجوء إلى أنماط الغموض، فهو يعبق بأنغامه ليخبئ المدلول وراء ركامات من الدوال"[69] تجعل قصائد الشاعر صرخة مولود جميل مسماه الموروث الصوفي، وشيجته في ذلك الغموض المنحدر من جنس الحداثة بنبض روح التجريب.

وهذا لسان حال شاعرنا المعاصر "عبد الله العشي" في ديوانه "مقام البوح" الذّي حاك خطابه الشعري ببوح منسوج من لغة الغموض، راسما بألوان السّتر صورا تجعلنا نطلق على شعره مسمى الشعر الصوفي الغامض و المتميّز، إنّه من ذلك النوع المستفز للمتلقي والذّي يجمع في التجربة الواحدة بين عناصر يصعب ربط مقوماتها الدلالية، حتى لا تصبح القصيدة تبعا لها طلاسما كلما تعددت تأويلاتها، و محاولة الوصول إلى كنهها يُضَاعِف الاغتراف من جمالياتها.

الهوامش والمراجع:

1- جاء في معجم لسان العرب لابن منظور أن الغموض من مادة غمض و الإغماض النوم جمع غمض وهو خلاف الواضح، ومعنى غامض: لطيف وكل ما لم يتجه لك من الأمور ويقال للرجل الجيد الرأي: قد أغمض النظر. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، مادة غمض، ج:11، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص:85.

2- بشير تاوريريت، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، عالب الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص:33.

3- محمد كعوان، التأويل و خطاب الرمز-قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص:213.

4- التجريب لغة من مادة جرب، جرب الرجل تجربة أي اختبره، و التجربة مصدر يجمع على التجارب و التجاريب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جرب، ج1، ص: 429. فالتجريب حركة تجديدية تحريرية تقوم على نبذ السائد.

5- الجمالية مصدر صناعي مشتق من الجمال، و يصعب وضع مصطلح جمال تحت تعريف منطقي واضح، لأنه قيمة من قيم الوجود، التي يمكن تذوقها و ادراكها و بالتالي تتغير مفاهيمه و مصطلحاته تبعا للتغيرات الفكرية. الجمال لغة مصدر الجميل، والفعل جمل أي حسن. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جمل، ج:1، ص:503.

6- بشير تاوريريت، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، ص:34.

7- نجد في المعجم العربي مجموعة من المصطلحات التي تدور حول فكرة الغموض منها: الابهام، اللبس، العماية أو اللغزية، كما تحفل اللغات الأجنبية بمصطلحات تشير إلى المصطلح نفسه منها: الغموض Vaguenes، العماية Aporia، الابهام Obscuvity، الاشتراك اللفظي Ambiguity، التضاد الدلالي Ambiralence.

8- بين هذا في كتابه أنماط الغموض السبعة William Empson , Seven Types of Ambiguity,Penguin Books, England,1965.

9- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص:189.

10- نبيل راغب، موسوعة الفكر الأدبي، دار غريب، القاهرة، مصر، دط، 2002، ص:299.

11- عبد القاهر علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، أسرار البلاغة، تر: هيلموت ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إسطنبول، تركيا، دط، 1954، ص:126.

12- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص:306.
13- إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط3، 2007، ص:115.
14- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ص306.
15- حازم بن محمد بن الحسين القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص:172.
16- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص: 194.
17- عز الدين منصور، دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1985، ص:129.
18- أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص:124.
19- بشير تاوريريت، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، ص:42.
20- محمد الهادي الطرابلسي، من مظاهر الحداثة في الأدب الغموض في الشعر، مجلة فصول، ع:04، م:04، القاهرة، مصر، 1984، ص:30، نقلا عن: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص: 393.
21- محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص:162.
22- فريال جبوري غزول، شعرية الغموض، مجلة فصول، ع:03، م:04، القاهرة، مصر، 1984، ص: 178 نقلا عن: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص: 395.
23- عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي و آليات التأويل- قراءة في الشعر المغاربي المعاصر- موفم للنشر، الجزائر، دط، 2008، ص:276.
24- بشير تاوريريت، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، ص: 38.
25- ألبيريس، الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين، تر: جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1965، ص:137، نقلا عن: عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي و آليات التأويل، ص:292.

26- عبد الله العشي: شاعر و أكاديمي جزائري بارز، يشتغل أستاذ برتبة أستاذ التعليم العالي في جامعة باتنة، من مواليد 23.03.1954، صدر له قبل مقام البوح كتاب بعنوان "زحام الخطابات" عن دار الأمل بتيزي وزو سنة2005.

27- عبد الله العشي، أسئلة الشعرية –بحث في آليات الإبداع الشعري- منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2009، ص:37.

28- حسين مروى، مقابلة مع جريدة النداء، 27.12.1984، نقلا عن: محمد علي مقلد، الشعر و الصراع الأيديولوجي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص:239.

29- نبيل راغب، موسوعة الفكر الأدبي، ص: 297.

30- ستانيلي أدغار هايمن، النقد الأدبي و مدارسه الحديثة، تر: احسان عباس، محمود يوسف نجم، ج:2، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981، ص:55. نقلا عن: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص:390.

31- محمد عبد الواحد حجازي، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2001، ص:65.

32- عبد الله العشي، أسئلة الشعرية، ص:37.

33- محمد عبد الواحد حجازي، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، ص:65.

34- عبد الله العشي، مقام البوح، جمعية الشروق الثقافية، باتنة، دط، 2000، ص:11.

35- المصدر نفسه، ص:12.

36- المصدر نفسه، ص:15.

37- المصدر نفسه، ص: 17.

38- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:379.

39- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:22.

40- المصدر نفسه، ص:20.

41- المصدر نفسه، ص:25.

42- جمال حسيني يوسف، صورة النار في الشعر المعاصر- مصادرها و دلالاتها و ملامحها الفنية، دار العلم و الايمان، كفر الشيخ، مصر، ط1، 2008، ص:63.

43- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:37.

44- المصدر نفسه، ص: 38.

45- المصدر نفسه، ص:39.

46- المصدر نفسه، ص:51.
47- المصدر نفسه، ص:52.
48- المصدر نفسه، ص:55.
49- المصدر نفسه، ص:56.
50- شادية شقروش، الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح لعبد الله العشي –دراسة سيميائية-، مذكرة لنيل درجة الماجستير في نظرية الأدب، باتنة، 2001، ص: 42.
51- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:63.
52- المصدر نفسه، ص:73.
53- المصدر نفسه، ص:81.
54- الخميسي شرفي، استراتيجية التضاد و علاقتها بالنزعة الصوفية في شعر عبد الله العشي، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر –بسكرة- ع:07، 2005، ص:267.
55- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:42.
56- المصدر نفسه، ص:44.
57- المصدر نفسه، ص: 43.
58- طلال حرب، معجم أعلام الأساطير و الخرافات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص: 158-174-203-215-279-280-291-338.
59- عبد الله العشي مقام البوح، ص:47.
60- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:09.
61- عبد الله العشي، مقام البوح، ص: 58.
62- المصدر نفسه، ص:36.
63- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:130.
64- عبد الله العشي، مقام البوح، ص: 86.
65- المصدر نفسه، ص:05.
66- المصدر نفسه، ص:89.
67- المصدر نفسه، ص:94.
68- المصدر نفسه، ص: 96.
69- عبد الله الغذامي، القصيدة و النص المضاد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، دت، ص:137، نقلا عن: شادية شقروش، الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح، ص:67.